حب السيدة فاطمة الزهراء في التراث المغاربي

الكثير لا يعرف ان هذه ابيات من قصيدة في السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام للفيلسوف و المفكر الباكستاني الدكتور محمد اقبال الذي صنع تاريخا و فكرا و أثر في ثقافة القارة الهندية و العالم الاسلامي حتى قيل ان عبدالكريم سوروش اعتمد على افكاره ،و بسبب اطلاعه الموسوعي و نضاله الفكري و اشتهر على مستوى العالم فقام بمقارنة بين فلاسفة المسلمين كابن رشد و ابن سينا و ابن عربي مع فلاسفة غربيين مثل نتيشه و هيجل و شوبنهاور و قورن هو بنيتشه و غوته فاهتمت دول بفكره منها المانيا التي انشأت جماعة اقبال لترجمة أعماله و في ايطاليا فعل المسيو اسكاريا و نكلسون في امريكا و اهتم عبدالوهاب عزام بآثاره بمصر .

المفكر و الاديب المصري عباس العقاد الف كتابه "فاطمة الزهراء و الفاطميون"

كذلك ابدع الدكتور محمد عبده يماني وزير الاعلام السعودي الأسبق في كتابه " إنها فاطمة الزهراء"

في قصيدة لنزار قباني

من وجع الحسين نأتي

من أسى فاطمة الزهراء

من أحد، نأتي ، ومن بدر

ومن أحزان كربلاء

نأتي .. لكي نصحح التاريخ والأشياء

ونطمس الحروف في الشوارع العبرية الأسماء

يقول الكاتب الباحث الاسلامي ياسر الحراق الحسني مؤلف كتاب " الحراق ومشاهير الشرفاء الأدارسة" " كل الرموز قد فنيت و بقيت يد فاطمة تحملها الصدور و تعلق على الحيطان بل تنقش بها شتى النعم" رغم انه في فترة زمنية كانت عقوبة الانتساب لفاطمة الزهراء يعني الاعدام بعد سقوط الادارسة .

انها فاطمة الزهراء عليها السلام التي تحظى بمكانه خاصة في المغرب العربي الذي يستغرب من عدم صدور كتاب عنها في بيئة احبتها و تيمنت باسمها فاسم فاطمة الزهراء الاسم الاشهر بالمغرب العربي لكن هذا لم يطئ لديهه لهيب هذا الاسم و التوسل بسيدة نساء العالمين زرع اسم فاطمة الزهراء في الحياة المغاربة حتى عرف "حزام لالة فاطمة الزهراء" بالدارجة، ويقصد به حزام السيدة فاطمة الزهراء. و يعرفه المغاربة ايضا بالبرد الذي يتساقط من السماء بـ "دموع لالة فاطمة الزهراء"

في التراث الشعبي المغاربي حضورا قويا للسيدة فاطمة الزهراء حتى عرف بكف فاطمة يصنع من الفضة أو الفخار يعلق على الصدور و الجدران لاعتقادهم أنه يحمي من الحسد و شرر العيون و لجلب البركة حتى وصل بهم الاعتقاد تأثيره في الجمادات زرع حب الزهراء حتى رسخت في التراث المغربي حتى في ايام الاستعمار الاوروبي تداولت بحيث انتقلت إلى اوروبا بهذه العبارة :

التي تعني يد فاطمة.fatima de main la

هذا ما تذكره الاستاذة بشرى شاكر " يد فاطمة الزهراء باتت تستعمل في اشياء كثيرة مثل الحلي والحلويات حتى حفرت اكثر و اكثر في وجدان المغاربة عربا و امازيغ واتخذت بعدا ثقافيا فوق العقائدي… بل إن رمزية لالة فاطمة الزهراء المنقذة وابنة الرسول الحبيب عليه الصلاة والسلام بلغت ذروتها فسمى المغاربة قوس قزح باسمها وكنا نسمع ونحن صغارا وخاصة ببعض المناطق الوسطية و الشمالية و الامازيغية" .

يورد القاضي حشلاف الجزائري " شئنهم من الاضطهاد ما سطر منه الشيء الكثير من ذلك مذبحة وادي الشرفاء في بني ملال، وذكر أنه قطع به أربعمائة رأس شريف" و لهذا سمي بوادي الشرفاء .

يذكر القاضي الجزائري عن صاحب عجائب الأسفار " قال يصعب علي جدا تمييز الأشراف من بين البرابرة لطول مكثهم بين أظهرهم مع إخفاء أصلهم وأنسابهم ومصاهرتهم للبرابرة " و يضيف الكاتب بأن "أبناء فاطمة أخفوا ذكر أنسابهم ولم يهملوه بسبب وجود مشجرات إلى يومنا هذا تعد من أصح ما يوجد بين مشجرات الشرفاء في العالم" و من بقايا مأساة السيدة فاطمة الزهراء في التراث الشعبي هو كما يذكر

الكاتب " فإذا اضفنا يد فاطمة المفتوحة "الخميسة" وهي على شكل يد تدفع جسماً مسطحاً وكذلك دموعها المعبر عنها في وصف البرد فإننا نرى الصورة المشفرة التي رسمها الإنسان الشيعي المضطهد في المغرب لفاطمة وهي في جو من الحزن تحاول دفع الهجوم عليها لينتهي بإصابتها في ضلعها ."

و يضيف كاتبنا في دراسته " ولعل هذا الموروث الشعبي في الثقافة المغربية البعيدة عن تأثيرات السياسة في المشرق يؤيد القائلين بمأساة الزهراء ويكذب اجتهادات النافين لهذه المأساة لأنه يستحيل تآمر مغاربة مطاردين محاصرين في الجبال قبل 1100 سنة مع مؤرخين بعيدين آلاف الكيلومترات في زمن التنقل على البهائم لاختلاق أو فبركة قصة حول الزهراء، إن حكاية الزهراء في المغرب صمدت لأن رموزها استعملت في وصف الطبيعة. فكلما ظهر القوس بعد المطر استذكرنا جرح فاطمة الزهراء وكلما سقط البرد."

يذكرها الباحث أنها لم تقتصر قضية الأنتروبومورفيزم الزهرائي التي تعني مظلومية الزهراء على التخليد الرمزي للمأساة الفاطمية بل يمتد إلى تخليد الاعتقاد بدور فاطمة الزهراء التكويني المرتبط بمقامها في المعتقد الديني.

من الآثار الراسخة لشخصية الزهراء في التراث المغربي في ذكرى مولد ابيها سيد البشر تذكر السيدة فاطمة الزهراء فيما يعرف لديهم المدح الطويل للحضرة الشفشاونية و منها :

قموا يا نايمين قموا حاميا.. وأنوار محمد شرقت عليا

أنا يا يما حليمة وهنا.. و داتو لالة فاطمة الزهراء

في اللهجة المغربية الدارجة اعتادوا يقولون "دخلت عليك بجاه لالة فاطمة الزهراء إلا سامحته". وهذا نوع من القسم يوازي القول: "أقسمت عليك بجاه السيدة الزهراء."

على الرغم كما يقول الكاتب "كأن المغاربة جبلوا بعد العهد الإدريسي الشيعي على إخفاء فضائل ومناقب أهل البيت وعلى رأسهم فاطمة الزهراء ليس فقط عبر الأنتربومورفيزم السالف الذكر، بل عن طريق اخفائها بين أبيات الشعر الشعبي حرصاً على استمرارية ذكر فضائلها التي كانت جريمة عقوبتها الإعدام على مدى قرون طويلة" .

من آثار الشعر الشعبي في المغربي ما قاله الشاعر المغربي المعاصر الحاج علي حسون في قصيدة "جاوبني يا ولدي جاوبي" الشعبية، التي تحكي أحزان والدته التي ذهبت إلى الحج ولم تجد لا أثراً ولا ذكراً للزهراء ::

" جاوبني يا ولدي جاوبي

على الزهراء قلبي معذبني

على الزهراء عقلي محيرني

جاوبني يا ولدي جاوبني

عندي يا ولدي سؤال محيرني

ما شفت في كتاب مسطر

ولا سمعت خطبة في منبر

ولا حكاية تروى في الآثار

لفاطمة الزهراء شي خبر

يقول العلامة احمد بن الصديق في كتاب " البحر العميق" أن أفضل الخلق عند الله بعد رسول الله فاطمة الزهراء ثم الحسنان والإمام علي.

كما يقول العلامة النسابة المغربي المشهور الطاهر بن عبد السلام اللهيوي وهو من منطقة تطوان - في كتاب "الحصن المتين": "إن غداً يوم القيامة للا (لالة كذلك وتعني السيدة) فاطمة ستجمع اولادها وإن شفاعة رسول الله ستبدأ منهم ولو فعلوا ما فعلوا من الإجرام والمناكر والكبائر التي ينص عليها الكتاب والسنة."

اصبح التراث المغربي مملوء بذكر السيدة الزهراء عليها السلام و منها عبارة شائعة في جبال وقرى شمال المغرب تستعملها غالباً الأمهات والجدات هي "امش في حجاب لالة فاطمة الزهراء". فإذا ودعت أم أو جدة ابناً أو حفيداً قالت له: أمض في حجاب السيدة فاطمة الزهراء وهو دعاء له بالحفظ.